مقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) (سورة آل عمران 102)

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) (سورة النساء آية 1).

ياربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذ رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد ...

عندما ظهر كتاب الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط في المعارض الدولية كان إقبال الناس عليه متميزاً عن بقية السلسلة التاريخية التي كتبتها عن التاريخ الاسلامي في الشمال الأفريقي ، وقد جائتني ملاحظات كثيرة عن الكتاب ، وكان مجموعة من القراء من أماكن متعددة قد إتفقوا على ضرورة إفراد محمد الفاتح بكتاب مستقل ووجدت هذه الفكرة هوىً عند الناشر فشرعنا في تنفيذ الفكرة فإن بارك الله في العمر والوقت وسهل السبل ، فبإذن الله تعالى سيلحق هذه الدراسة أبحاث على نفس المنهج لإحياء بعض سير أبطال الأمة الذين كان لهم تأشير في تأريخنا المجيد .

إن هذا الكتاب يتحدث عن محمد الفاتح ، فاتح القسطنطينية وقاهر الروم وعن أجداده العظام الذين عاشوا بالإسلام وماتوا في سبيل إعلاء كلمة الله يتحدث عنهم حديثاً منصفاً ، فيبين للقارىء الكريم سيرة عثمان الأول ، وأورخان ومراد الأول ، وبايزيد الأول ، ومحمد جلبي ، ومراد الثاني ومحمد الفاتح ، ويوضح صفاتهم

والمنهج الذي ساروا عليه ، وكيف تعاملوا مع سنن الله في بناء الدولة كسنة التدرج ، وسنة الأخذ بالأسباب ، وسنة تغيير النفوس ، وسنة التدافع ، وسنة الأبتلاء ، وكيف حقق القادة الأوائل شروط التمكين ، وكيف أخذوا بأسبابه المادية والمعنوية ؟ وماهي المراحل التي مرت بها الدولة ؟ وكيف كان فتح القسطنطينية نتيجة لجهود تراكمية شارك فيها العلماء والفقهاء والقادة والجنود على مر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان ؟ ويبين للقاريء الكريم أن النهوض العثماني في عصر السلطان محمد الفاتح كان شاملاً في كافة المجالات العلمية والسياسية والأقتصادية والإعلامية والحربية ، وإن للتمكين صفات ، لابد من توفرها في القادة والأمة وبفقدها يفقد التمكين .

قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون) (سورة يوسف :آية 111)

إن هذا الكتاب يقف بالقاريء على بعض سنن الله في المجتمعات والأمم والشعوب وبناء الدول ، ويوضح أثر تحكيم شرع الله تعالى على الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح ويدعو القاريء الكريم للتأمل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليفهم فقه إحياء الشعوب وبناء الدول حتى يكسب العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق ، وكتاب الله تعالى مليء بسننه وقوانينه المبثوثة في المجتمعات والدول والشعوب . قال تعالى: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) (النساء : 26).

وقد أرشدنا كتاب الله تعالى إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير ، وفي الأزمنة من التاريخ والسير ، قال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) (آل عمران : 137-138).

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكير ، قال تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين) (يونس : 101-102).

إن السنن الإلهية تتميز بخصائص من أهمها : إنها قدر سابق ، إنها لاتتحول ولاتتبدل ، إنها لاتخالف ولاتنفع مخالفتها، ولاينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون ، إنها تسري على البر والفاجر .

ولقد ركزت في هذه الدراسة على آثار تحكيم شرع الله تعالى زمن السلطان محمد الفاتح ;فبينت تلك الآثار ، كالاستخلاف والتمكين ، والأمن والاستقرار ، والنصر والفتح ، والعز والشرف ، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل ، وتحدثت عن صفات محمد الفاتح وعن أعماله الحضارية ، وتطرقت لوصيته لأبنه وهو على فراش الموت والتي تعبر أصدق التعبير عن منهجه في الحياة وقيمه ومبادئه التي آمن بها والتي يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها ، فشرحتها وبينت أصولها وقواعدها وأيقنت بأن قادة الأمة وزعمائها في أشد الحاجة لدراستها وفهمها وتطبيقها وتعرضت للشبهات التي ألصقت بمحمد الفاتح كالتي أفتراها المؤرخ الأنجليزي أدوارد شيبرد كريسي في كتابه تاريخ العثمانيين الأتراك وحاول أن يشوه صورة الفتح العثماني للقسطنطينية ووصف السلطان محمد الفاتح بصفات قبيحة

حقداً منه وبغضاً للفتح الاسلامي المجيد ، وسارت الموسوعة الاميركية المطبوعة في عام **1980** في حمأة الحقد الصليبي ضد الأسلام ، فزعمت أن السلطان محمد قام باسترقاق غالبية نصارى القسطنطينية وساقهم إلى أسواق الرقيق في مدينة أدرنة حيث تم بيعهم هناك فنفيت هذه الشبهات من جذورها وأقمت الحجج القاطعة والبراهين الساطعة على الحقائق التاريخية الناصعة التي تبين أن السطان محمد عامل أهل القسطنطينية معاملة رحيمة وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم وافتدى عدداً كبيراً من الأسرى من ماله الخاص ، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم وأمنهم على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم وبينت إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ماأظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع إلتزامه الصادق بالإسلام العظيم ، وتأسياً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ثم بخلفائه الراشدين من بعده في معاملتهم لأهل الذمة الذين إمتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم .

ومن ذا ينكر الدور الذي قام به العثمانيون حين إستنجد بهم المسلمون في شمال أفريقيا ، يوم زحفت عليهم الجحافل الغازية من إسبانيا وغيرها ، وعلى رأسها الكاردينال (خمينس) ،مما دفع بالمسلمين في الشمال الافريقي أن يستنجدوا بالدولة العثمانية التي سارعت في مساندة إخوانها في الدين وبرز القائد العظيم والمجاهد الكبير خير الدين بارباروس الذي راح يجوب البحر الابيض المتوسط ليطهر الشواطيء الافريقية الشمالية من الغزاة ، حتى مكّن للإسلام فيها مرة أخرى وحمى المسلمين في تلك الديار من شرّ محقق .

والقسطنطينية التي بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتحها ، من ذا الذي فتحها غير السلطان محمد الفاتح ، الذي وضع خطة غاية في دهاء التدبير وروعة في الإعداد العسكري ودقة التنفيذ ، يوم حمل السفن براً على جذوع الشجر ، ثم دحرجها وأنزلها إلى البحر خلف البيزنطيين من حيث لايتوقعون ، مما أدى إلى

دحر إسطولهم وهزيمتهم ، وفتح القسطنطينية التي أصبحت فيما بعد عاصمة الخلافة ، وحملت إسم إسلامبول أو إستانبول لماذا نحاول أن نطمس تاريخ مثل هذا السلطان محمد الفاتح ، الذي أمضى أيامه ولياليه في خيام الجهاد ، وعلى صهوات الجياد ولم يعرف طعم النوم والراحة في المدن والقصور(1) .

لقد تعرضت للعثمانيين ، ماذا لهم وماذا عليهم في كتابي الدولة العثمانية عومل النهوض وأسباب السقوط .

أما هذا الكتاب فإنه يهتم بسيرة السلطان محمد الفاتح وعوامل النهوض في عصره .

لقد تعرّض بعض المثقفين ممن تأثروا بالمناهج الغربية في كتابة التاريخ لما كتبت في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي بالنقد وقالوا ما دخل العقائد في التاريخ ؟ وما علاقة صفات القادة بالتاريخ ؟ وماعلاقة تحكيم الشرع بالتاريخ ؟ .

وأقول وبالله التوفيق : إن منهج كتابة التأريخ الاسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الاسلامي ، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاتها المنهجية ، وفي تفسير حوادثه والحكم عليها ويعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمري بقوله : إلا أن التفسير الأسلامي للتاريخ منبثق من تصور الأسلام للكون والحياة ، والإنسان ، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى ، وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى . فهو لايخرج عن دائرة المعتقدات الأسلامية كما أنه مبني على دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ الاسلامي العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه [2]

---

(1) إنظر تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء ، يوسف العظم ص174 – 177

(2) إعادة كتابة صدر التأريخ الأسلامي . د. أكرم ضياء العمري3

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكون على هدي الشريعة وشكل حياته وتصوراته وفقاً لها، وكان تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته في الدعوة إلى الله ، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي التعليم وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والإجتماعية ، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات .

ولكي يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحاً وواقعياً فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع وتحكمت في حركته وبناء تصوراته وثقافته ، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية ، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات ؟ وكم منها مائل عنها ؟ لنعرف مدى الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية ، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله ، وندرك أيضاً فضل الله ورحمته بهذه البشرية ، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور ومن الجور إلى العدل ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن الشقاء إلى السعادة ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه . قال تعال: (الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)(إبراهيم:1).

فالمنهج الاسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج الأخرى ، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيراً تبريرياً بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على سواه (3).

(3) إنظر :صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي للصلابي ص58 ، 59

ويضيف الدكتور أكرم العمري في ذلك : أنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الانتاج –كما في الفكر الماركسي– أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجي – من مناخ وجغرافيا وإقتصاد –كما في الفكر الغربي ، بل هو يوضح دور الإنسان ومسؤوليته عن التفسير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية (4).

إن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي ، فإذا ماإختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء متأثرة بالاحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث ، ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين في أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية ، وبعضها ناتج عن الغبش في التصور ، وعدم وضوح الرؤيا بالغزو الفكري الأوربي .

إن المنهج الذي سرت عليه في الدراسات التاريخية هو المنهج القرآني في عرض القصص ولذلك اهتممت بإبراز صفات القادة والمسائل العقدية والأصول التي تقوم عليها الدول وتحي بها الشعوب ولنضرب على ذلك مثلاً من القرآن الكريم في ذكر نبي الله داود عليه السلام .

إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له ، وهي تحقق للقائد المصلح كمال السعادة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ فذكرت هذه الآيات بعض الصفات ، فمنها:

1. الصبر : فقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله .

---

(4) انظر : إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامي ، د. أكرم ضياء العمري :3

2. العبودية : فقد وصفه ربه بقوله (عبدنا) وعبّر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم والوصف بالعبودية لله غاية التشريف ، كوصف محمد صلى الله عليه وسلم بها ليلة المعراج (سبحان الذي أسرى بعبده) (الإسراء ، آية : 1) .

3. القوة على أداء الطاعة والإحتراز عن المعاصي في قوله (ذا الأيد) .

4. والرجّاع إلى الله بالطاعة في أموره كلها ، في قوله تعالى : (إنه أواب) .

ووصف بالقوة على طاعة الله وبأنه أوّاب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح .

وقد ذكر الله تعالى غير ذلك من صفات داود عليه السلام ، وتحدث القرآن الكريم عن الفتنة والإبتلاء التي تعرض لها داود عليه السلام ، قال تعالى : (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم . وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب). (سورة ص : 21-24).

وقد ذكر العلماء في الآيات السابقة فوائد عظيمة ، وحكماً جزيلة وقد تحدث القرآن الكريم بعد آيات الأبتلاء على إستخلاف الله تعالى لداود عليه السلام ، قال تعالى :(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع

الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) (ص:26).

فقد بين الله تعالى قواعد الحكم في الآيات السابقة تعليماً للمسلمين :

1. (فاحكم بين الناس بالحق) أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السماوات والأرض ، وهذه أولى وأهم قواعد الحكم .
2. (ولاتتبع الهوى) أي لاتمل عن الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا ، فإن إتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار .

إن الآية الكريمة تبين أن الحكم بين الناس ، مرتبة دينية ، تولاها رسل الله ، وخواص خلقه ، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ، ومجانبة الهوى ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية ، والعلم بصورة القضية المحكوم بها ، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي ، فالجاهل بأحد الأمرين لايصلح للحكم ، ولايحل له الإقدام عليه ، وتبين كذلك أن الحاكم ينبغي له أن يحذر الهوى ، ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن مسائل عقائدية مهمة في حياة المسلم ، قال تعالى: (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) (سورة ص،29،28،27،) .

ثم تحدث القرآن عن هبة الله لداود عليه السلام ، قال تعلى: (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب) (ص:30).

وتحدث القرآن الكريم عن صناعة الأسلحة التي كان يقوم بها داود عليه السلام ، قال تعالى:

(وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) (سورة الأنبياء ، آية **80**) .

وقال تعالى : (وألنا له الحديد . أن إعمل سابغات ، وقدر في السرد وإعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير) (سبأ: **11،1**) .

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والإستخلاف ، إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له ، أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع ، ولاشك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول ، وفي حسم إنتصارات الجيوش.

إن هذه المنهجية القرآنية هي التي سرت عليها في كتابتي التاريخية ولذلك اهتممت بصفات القادة ، وعقائدهم والمنهج الذي ساروا عليه وبعدهم وقربهم من شرع الله تعالى ، فهذه المنهجية تخالف المناهج الغربية في دراسة التاريخ ، لأنها تنبثق من تصور للحياة والكون والإنسان وحركة التاريخ من خلال منهج الخلاق العليم المتمثل في كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، وعلى الأخوة المثقفين المتأثرين بالمناهج الغربية في كتابة تاريخنا أن يتحرروا من تلك الأغلال والقيود الفكرية التي فرضها المستعمر والذي حاول ولايزال جاهداً أن يبعد المسلمين عن دينهم وعقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم هذه بعض الردود على ما وصلتني من إعتراضات عن المنهجية ولم تكن مع الناقدين حجة ألا أنهم لم يتعودوا قراءة التاريخ بهذه المنهجية السنية البهية ، وقد جاءتني بعض الانتقادات العلمية من بعض الباحثين ، وقد إستفدت منها فلهم مني الشكر والدعاء في ظهر

الغيب بالتوفيق والسداد وأن يوفقنا جميعاً لخدمة ديننا وعقيدتنا وتاريخ أمتنا المجيد .

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى تمهيد وفصلين ، والخلاصة :

الفصل الأول : قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول : عثمان مؤسس الدولة العثمانية

المبحث الثاني : السلطان أورخان بن عثمان

المبحث الثالث: السلطان مراد

المبحث الرابع : السلطان بايزيد الأول

المبحث الخامس: السلطان محمد الأول

المبحث السادس : مراد الثاني

الفصل الثاني : محمد الفاتح وفتح القسطنطينية ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول :السلطان محمد الفاتح

المبحث الثاني: الفاتح المعنوي للقسطنطينية الشيخ شمس الدين آق محمد بن حمزة

المبحث الثالث: أثر فتح القسطنطينية على العالم الأوربي والإسلامي .

المبحث الرابع : أسباب فتح القسطنطينية

المبحث الخامس : أهم صفات محمد الفاتح

المبحث السادس : بعض من أعماله الحضارية

المبحث السابع : وصية السلطان محمد الفاتح لأبنه ، ثم الخلاصة .

وأخيراً : أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب أخواني الذين أعانوني بكافة مايملكون من أجل إتمام هذا الكتاب وأهدي للقاريء الكريم هذه الأبيات المعبرة :

ملكنا هذه الدنيا قرونا

وأخضعها جدود خالدونا

وسطرنا صحائف من ضياء

فما نسي الزمان ولانسينا

ومافتيء الزمان يدور حتى

مضى بالركب قوم آخرونا

وآلمني وآلم كل حر

سؤال الدهر أين المسلمون

ترى هل يرجع الماضي فإني

أذوب لذلك الماضي حنينا

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لاإله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين)

العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد الصلابي